الشنّي الوسطاوي ثمّ المطران ميخائيل فاضل الثاني سنة ١٧٩٤ فتوفي سنة ١٨١٩. وهؤلاء الاساقفة الوارنة لم يسكنوا غالباً بيروت. وقد وُجد منهم في وقت واحد اسقفان على المدينة (١

وفي اواخر القرن الثامن عشر تعدّدت النكبات على بيروت وقد سبق أن المراكب العسكريّة ضربتها مرّتين بالمدافع في عهد الامير يوسف والجزّار. وذهب جنود الروس اهلها. ثمّ عاد الجزّار سنة ١٧٧٦ فاستولى على بيروت ورفع يد الامير يوسف عنها وضبط ما فيها من الاملاك للامراء الشهابيين وهدم دورهم ورمّم بحجارتها السور وابقى دار الامير مراد كحصن. واحرق بيوت النصارى وجعل كنائسهم اصطبلات وقطع الاشجار التي بجوانب المدينة فكل هذه النكبات مع نفي الفرنج من بيروت احتلّت على اهلها كضربة لازبة فتفرّق شملهم وتلفت صناعتهم وكسدت تجارتهم. وفي كتابات القنصل الفرنساوي هنري غويس .H) (Guys انّ بيروت اصبحت في اوائل القرن التاسع عشر سنة ١٨٠٥ كقرية لا يزيد عدد اهلها على خمسة آلاف (لهُ تابع)

قصة صالح ابن عبد القدّوس مع راهب الصين

نشرها حضرة القس اسحق ارملة السرياني الكاثوليكي

توطئة

بين مخطوطات دير سيّدة النجاة في الشرفة للبحريان الكاثوليك (٢) مجموعة لطيفة تحت الرقم ٢٥٨ تحتوي على مقاطيع شتى دينيّة وادبيّة وتاريخيّة وقصصيّة بخطوط مختلفة عربية وكرشونيّة يرقى عهدها الى القرن السادس عشر. وممّا جاء هناك القصّة التي نسخها حضرة القس اسحق ارملة لينشرها في هذا العدد من المشرق وهي قصّة صالح ابن عبد القدّوس مع راهب الصين. وقد اثبتنا سابقاً اخبار صالح واشارة الحكيمة الجميلة (المشرق ٢٢ [١٩٢٤]: ٨١٩-٨٢٩ و٩٢٦) وصالح ابن عبد القدّوس قتلهُ المهدي كزنديق وامّا زندقتهُ كانت تقريبهُ الى النصرانيّة. وفي هذه القصّة شاهد على هذا الرأي. امّا راهب الدين المذكور هنا فلا نعرف من امرهِ شيئاً. وما

١) اطلب في المشرق ٧ [١٩٠٤]: ١٠٩١-١١٠٦) مقالة الشيخ سليم الدحداح في ابرشية الوارنة في بيروت ٢) مكتبة الشرفة غنيّة بالمخطوطات النادرة

لا شك فيه انّ عدّة من الكلدان النساطرة كانوا دخلوا الصين للتبشير بالمسيح منذ القرن الثامن للميلاد. وقد نشر سيادة المطران بطرس عزيز في المشرق (٧ [١٩٠٤] : ١٠٣٥-١٠٤٣) مقالة تتمة ضمّنها آثار تلك العلاقات بين الكلدان والصين. وجاء في التاريخ ذكر رهبان عادوا من الصين بعد ان سكنوها مدّة. منهم راهب خراساني ذكره ابن النديم في كتابه الفهرست (ص ٣٤٩) وقال انهُ اجتمع به سنة ٣٧٧ هـ (٩٨٧ م). ومن ثمّ لا نعدّ القصّة المذكورة هنا كقصّة خياليّة بل كأثر تاريخي وادبي

ل . ش

(ص ١) بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

نبتدئ بعون هذا الاله العظيم ونكتب قصّة صالح ابن عبد القدّوس مع راهب الصين رضي الله عنه آمين

قال الراوي (١) : انني مررتُ براهب من رهبان الصين. فوقفت على باب صومعته فحيّيتُ (٢) ان افاتحه بالكلام. فناديتهُ : يا راهب فلم يُجبني. فقلتُ : يا ربّان (٣ فلم يخاطبني. فقلتُ : يا عبدالله. فلم يردّ عليَّ الجواب (ص ٢). فعظم عليَّ شديدًا كيف اني اروح وما اطّلع على خبره. فقلتُ : بحقّ الذي اوجبك (كذا) الوحدة لا تبخل علي بسماع كلامك. ثم اشرف عليَّ بوجه اصفر وثوب قذر وقال : من هو الذي دعاني بغير اسمي وكنّاني بشيء لا استحقّه ؟. فقلتُ : لك اقول. يقال : اما قولك «يا راهب» فمن هو الراهب ؟ الراهب من رَهِبَ الله مولاه في سلطانه، وعظّمهُ في بهائه، وردعني بقضائه، وشكرهُ على نعمائه، وحمده على بلائه، وخضع لربوبيّته، وتواضع لعظمته، وذلّ لقدرته، واستسلم لعزّته، وفكّر في حسابه، وعاقبه يوم عذابه، وذكّر وعده ووعيده، وسلاسله وحديده، وجلاله وقيوده، وذكر وقوفهُ بين يدي ربّه، يوم يعرض عليه وهو في ليلته قائم، وفي نهاره صائم، قد أحنته العبادة، وأقرح جفونه من كثرة البكاء والاسهار، وذكر النار ومداينة الجبّار، وأقلقه خوفُ العذاب، وأنحله ذكرُ الحساب، فذاك هو الراهب. وانا فلستُ براهب. واما (ص ٣) قولك لي «يا ربّان» فمن هو الربّان ؟ الربّان مَن رَبَّ (كذا) نفسه من الطعام والطاعم، وتجنّب

(١) يريد بالراوي صالحًا ابن عبد القدوس (٢) فاجبتُ

(٣) الربّان لفظ سرياني وتمّم تفسيرهُ معلّمنا وهو يطلق على الرهبان عمومًا

من المحارم، حتى يرحم من ظلمه، ويقضي لمن نطحتهُ، ويعطي مَن حرمه، ويترك العلوّ والرئاسة حتى تصير نفسه عنده كمثل العبد لصاحبه، فان كان كذا والّا فليس هو بربّان. وانا فلستُ بربّان. واما قولك لي «يا عبدالله» فانا واانت عبيدالله. أما تعلم يا اخي ان الاسماء في هذه الدنيا عاريّة. واما الاسماء فهي اثنان. وهي مكتوبة يوم القيامة. إمّا يقول لي «يا سعيد» واكون سعيدًا الى الابد. واما يقول لي يا «شقيّ». واكون شقيًا الى الابد. وانا كواحد من عبيدالله. قلت له: ما اسمك؟ قال: ما اعرف اسمي. قلت: عجبٌ منك فقد خالطك الشيب ولم تعرف اسمك فكيف تعرف نفسك؟. فقال: اعلم اني انا حابسٌ كلّيّ عوّرين نفسي ولساني. حبستهما في هذه الصومعة حتى لا اعثر احدًا من خلق الله بهما واوذيه بشرّهما. فقلت: يا راهب لمن تعبد؟ قال: اعبد الله الذي خلقني وخلقك (ص ٤) من التراب، وجعلنا نطفةً في الاصلاب، ثم نقلنا الى بطون الامّهات، وسكّننا ما بين لحم ودم ومهّدنا الى الاحشاء، ورتّبنا كيف شاء، واخرجنا سويًّا، تبارك الله احسن الخالقين. وقوت الرازقين.

قلت: يا راهب أعظيمٌ هو الله؟ قال: يا اخي عظيم هو في مقدرته. وقد قهرتْ عظمتهُ كلّ شيء. يعلم ما يخفى وما يظهر. وما يسرّ وما يُعلن. ويعلم ما في قلوبنا. وما تكتم صدورُنا. ويعلم ما في السموات والارض. ولا يخفى عليه شيء. وهو العليم الكبير

قلت: يا راهب اين الله من قلوب الصالحين؟. قال: يا اخي قلوب الصالحين لا تغرب عنه. وحيث يعلم انهم مشتاقون اليه قد تعلّقوا بحبه، وقد أنستْ ببرّه، وتوكلت عليه ووثقت اليه، وهم يسبّحونه ليلًا ونهارًا. ولا يفترون منه طرفةَ عين. ثم قال لي: يا اخي. حبُّ الدنيا ثبتَ في قلوبكم، وحملتموها على ذهوبكم (كذا). وركبت اعناقكم، ودخل حبها في قلوبكم، وكثرت فيها ذنوبكم، واعلم يا اخي ان الدنيا غرّارة منصرفة منقطعة زائلة مائلة، تتقلّب باهلها كيف تشاء، (ص ٥) فمن وثق بها خدعتهُ، ومن انتبها قطعته. ومن اطمأنّ اليها صرعته، ومن اغترّ بها خدعته، ومن اتّكل عليها خذلته، ومن احبّها أعمته عن طريق الصلاح، ومن خدمها اتعبته، ومن جمع مالها افتقدته، ومن شرب بكأسها أدمته، والندامة في عمل الخير اورثته، الطوبى لمن تجنّب عن الدنيا وازالها عن قلبه، وتاب الى ربّه من ذنبه، ولا

يواصلها الا ويتركها . ولتركها علامات

فقلت : ما هي . قال اولها ترك الحرام في مكسب المال ، والآخر في القيل والقال ، وما اشبه ذلك . وتساوي عندك صديقك وعدوك ، واترك الفضول ، وقلل الرغبة في جمع المال من الحرام ، تواضع تقدام الله وتقدام الناس ، وردّ نظرك من شهوات هذي الدنيا حتى يكون قلبك صافياً ، ولا ترى جميلاً الا وترغب فيه ، ولا ترى قبيحاً الا وتأنف منه ، واحفظ نفسك من الشرور ، وافتح قلبك وابصر ما ينفعك وما يضرك

قلت : يا راهب اخبرني عن العقل . قال : اصلهُ المعرفة وفرعهُ الاعمال . قلت : يا راهب من اين يذوق (ص٦) العبد حلاوة الانس بالله ؟ قال : يا اخي اذا صفت القلوب في محبة الله . فقلت : متى تصفو القلوب في محبة الله ؟ قال : اذا صرفتَ الهمّ عن قلبك . وتبعتَ الله في مكانه في المحبة والطاعة . قلتُ : يا راهب لِمَ قد تخليت بالوحدة ؟ . قال : يا اخي لو ذقتَ حلاوتها لاشتاقت نفسك اليها . فيا فتى الوحدة هي راس العبادة . قلت : يا راهبُ ما الذي يجد العبد في الوحدة ؟ قال : يجدُ الراحة من مقاساة الناس الاشرار والسلامة من شرورهم . قلتُ : يا راهب بمَ يطيب العيش ؟ قال : بالقنع في المكسب والنظر في الحلال . قلت : يا راهب زدني في الشرح لاني ما افهم ما تقول . قال : كُلْ حلالك وارقد حيث شئت . قلت : يا راهب بما تُقطع الطرق ؟ قال : بالصوم الدائم ، والسهر القائم ، قلتُ : يا راهب اين طريق الراحة ؟ قال : في خلاف الهوى

قلت : يا راهب ما الذي حملك على لبس السواد وهو لبس اهل الحزن والمصيبة ؟ قال : يا اخي ان المرأة اذا خلّى ولدُها اظهرت الحزن بلبس (ص ٧) السواد . قلتُ : يا راهب هل اصابك مصيبة ؟ قال : يا اخي واي مصيبة تكون اعظم من مصيبة الذنوب . قلتُ : يا راهب لِمَ تخليت في هذه الصومعة ؟ قال : يا اخي رأيتُ كل من يمشي على الارض يعثر في رجليه . فتعلقتُ بهذه الصومعة لأبعُد عن فتنة مَن في الارض واهلها . لانهم سارقون العقول فخفتُ منهم ان يسرقوا عقلي . وذلك الانسان اذا صفا قلبه ضاقت به الارض وازداد حبًّا الى ربّ العالمين . وتفكرتُ في حبّ المال واحببت ان ارتحل الى ربّ لم يزل بي رحيماً . قلتُ : يا راهب من اين تاكل ؟ قال : من زَرْع لم اتانْ بزرعه ومن نباتٍ لطيف طيّب الخير من خزائن الرحمان التي لا تخاف النقصان . وان الذي خلق الطاحونة هو يأتيها بالطحين . فأنظر الى سنانه

قلت: يا راهب كيف كونك في هذه الصومعة وصبرك فيها وحالك بها؟ قال: يا اخي كيف يكون حال من غفل عن الوعيد، وهو يريد السفر البعيد، بلا زاد ولا استعداد. ويسكن قبرًا وحشًا بلا حسّ ولا جليس، ولا حاجب ولا بوّاب، ويقف بين يدَيّ (ص٨) حكيم عادل يحكم بين عبيده بالعدل والقضاء فيقومون بين يديه عراة قد اذلّهم الكرب واجهدهم العطش. وطال العناء، وكثر البكاء، وفنيت الدموع، وكثر الخشوع، وهجمهم العرق، وهدمهم القلق، وذلّهم الفراق وطال بهم الأرَق، واضطربت المفاصل والاعظام وبرز الفصل والحكم والقضاء. وارتعدت الرُكب واقشعرّت الجلود، واصطكّت الاسنان، واحترقت الاقدام من طول القيام، وبلغت القلوب الى الحناجر، وضاقت الصدور، وتحيرت فيها الامور، وظهرت الخبايات، وبرزت المخبآت، وعرضت السيّآت، وطاشت العقول، وشخصت الابصار الى النظر الى العزيز الجبّار، فلا ارض تقبل ولا سماء يظلّ، ولا جبل يخيّم، ولا شمس تشرق، ولا قمر ينير، ولا كوكب يسير، ولا بحر يجري. وقد اذعن العالمين بالمذلّة، وقد خذلت الارقاب، وذهلت الالباب، وتقطّعت الانساب، وتفارقت الاحزاب، وحُشرت العباد، وانجمت الأشهاد، ونُشرت الامرات، وخشعت الاصوات، وطال الوقوف. واشتدّ الخوف. وتزلزلت الاقدام، وحارت الاوهام، واهتزّت (ص٩) الاركان، وتغيّرت الالوان، وتحيّر الانسان، وخرس اللسان، وانتصب الميزان، ونُشر الديوان، وأوقد الجحيم وأذنت جهنم بالزفير، وحميت بالسعير، وزفرت النار جدًا على الكفّار، نار جوهرها وشرارها شديد، وعذابها عتيد، وشرابها بالمهل والصديد، ومقامع الحديد. وما هي من العالمين ببعيد. ولاذ الملتن العبيد؟ . فالويل لمن عصاه، فكيف يكون مثواه، والنار مسكنه ومأواه، فيأمر به الزبانية. فيأخذونه ولا يحركونه. فتخلع بيديهم اعضاؤه، وتتقصّف عظامه وقواه، ويذهبون به مسحوباً، وعلى وجهه مكبوباً، فيوثق بالسلاسل والقيود، ويسربل عليه بالقطران، ويتقدّم معه الشيطان، وتطبق عليه ابواب النيران، فيكون مسكنه الجحيم، وطعامه الزقوم. وشرابه الصديد، فيستغيث فلا يغاث، ويتضرّع فلا يُرحم. فينادي من الكروب. وعلى رأسه بالمقارع مضروب، وعليه العذاب منصوب، ونار الجحيم فوق راسه مكوب (لهُ بقيّة)